الفصل الأول
النشأة والتكوين

ولد محمود سامى بالقاهرة فى السادس من أكتوبر ١٨٣٩ من أسرة جركسية تجرى فى عروقها دماء الأمراء، فوالده "حسن حسنى بك" كان من أمراء المدفعية ثم عينه محمد على مديرا لبربر ودنقلة بالسودان أما والدته "فاطمة هانم البارودية" فكانت من ذوى الجاه واليسار فوالدها "على أغا البارودى" أحد كبار المماليك الذين قتلهم محمد على فى مذبحة القلعة ١٨١١م وبالنسبة للقب البارودى الذى ألصق به فيرجع إلى بلدة إيتاى البارودى إحدى مناطق مديرية البحيرة، ذلك ان أحد أجداده الأمير "مراد البارودى" عمل ملتزما بها وكان كل ملتزم ينسب فى ذلك الوقت إلى مكان التزامه، لذلك ظل هذا الاسم علما عليه وعلى أسرته، وظل البارودى شديد الاعتداد بهذا النسب. وقد حرم شاعرنا من العطف الأبوى منذ نعومة أظفاره حيث مات أبوه بدنقلة وهو فى السابعة من عمره فعاش يتيما وكفله بعض أهله. وبعد أن تلقى علومه الأولية التحق بالمدرسة الحربية مثل أمثاله من ابناء الطبقة الحاكمة، حيث كانت الجندية مظهرا من مظاهر السيادة والعزة فى الوقت الذى جعل فيه محمد على الجيش قوام دولته، ومصدر قوته، ولكن عندما تخرج البارودى من هذه المدرسة كانت الأمور قد تغيرت حيث أهمل خلفاء محمد على أمثال عباس الأول وسعيد أمور الجيش وقاما بتسريح معظم أفراده، وكان منهم البارودى، وبدأ يخيم على مصر جو من الركود فى الوقت الذى كانت لدى البارودى آمال كبار

وتطلع نحو المستقبل. فتحركت نفسه لقول الشعر، وفى ذلك يقول "ان موهبة الشعر لازمتنى منذ نعومه أظفارى ولم تفارقنى إلا فى أقل لحظات حياتى" فرجع إلى دواوينه يقرأ الشعر العربى القديم بما فيه من حماسة وأمجاد، فقرأ لأمرئ القيس، وأبى فراس، وابن المعتز، والشريف الرضى وغيرهم ووجد فى شعرهم روعه وجمالا حيث تناولوا الحياة كلها بما فيها من جد وهزل ووصف وغزل وبطولات وأمجاد فانفسحت أمامه الحياة بحلوها ومرها. وبدأ ينظم الشعر فوجد فيه صورة نفسه وما تصبو إليه من آمال، واهتدى بفطرة الشاعر الفارس إلى شعر الفرسان يقرؤه، ويعيش معه فيما يقرأ فاستهواه هذا الشعر واندفع ينهل منه بعد أن أحس ان ثورة الشباب تهزه هزا عنيفا، وتذكره بالأعلام المصرية التى كانت ترفرف على بلاد العرب وسورية أثناء حكم محمد على، ولما رأى ضرورة الاستزادة من الشعر سافر إلى الآستانة عاصمة الدولة العثمانية يبحث فى مكتباتها عن كنوز الثقافة العربية التى اغتصبها الاتراك من مصر عندما استولوا عليها عام ١٥١٧ وهناك التحق بوزارة الخارجية، وتعلم اللغتين التركية والفارسية درس آدابهما وتغنى بأوزان شعرهما، ولم تسنح له فرصة لتعلم لغة إلا واغتنمها، ولما كانت اللغة العربية أصيلة فى نفسه أخذ يقرأ دواوين الشعراء الأمويين والعباسيين ويدرسها طوال السنين التى أقامها على ضفاف البسفور. وبعد أن تولى اسماعيل باشا حكم مصر عام ١٨٦٣ ذهب إلى الآستانة ليؤدى يمين الولاء للسلطان العثمانى وهناك قابله محمود سامى البارودى ، وتوسم اسماعيل فيه النجابة والطموح، وعاد به إلى مصر، وضمه إلى معيته وكان وقتذاك فى الرابعة والعشرين من عمره

ليبدأ صفحة جديدة من حياته خاصة وان اسماعيل عقد العزم على أن يعيد إلى مصر قوتها التى أسسها جده محمد على، بأن يكون لها جيشها القوى وتعود لنهضتها العلمية، وأن تنقل كل ما فى أوروبا من أسباب الحضارة فالتحق البارودى بالجيش، وتمت ترقيته ، وأوكلت إليه قيادة فرقتين من الفرسان، كما تم إيفاده فى بعثة عسكرية إلى فرنسا مع مجموعة من الضباط لمشاهدة التدريبات العسكرية هناك مما فتح آفاقا جديدة فى حياته، جعلته يزداد علما ومعرفة. وبعد عودته إلى مصر وجد الحظ مفتوح الذراعين أمامه فتمت ترقيته عدة مرات حتى تسلم قيادة الفيلق الرابع من عسكر الحرس الخاص بالخديوى. وعندما طلبت الدولة العثمانية من الخديوى اسماعيل إرسال حملة إلى جزيرة كريت لمساندتها فى إخماد الثوار هناك، استجاب اسماعيل لطلب السلطان، وأرسل مجموعة من قواته إلى هناك كان البارودى أحد قوادها الذين شاركوا فى هذه الحرب، وأبلوا بلاء حسنا ، مما جعل السلطان يُنْعِم عليه بالوسام العثمانى من الدرجة الرابعة.

وخلال ذلك قال شعرا مطلعه:

أخذ الكرى بمعـــاقد الأجفـــان

وهفـــــا الســـرى بأعنة الفرســـان

كما قال أبياتا استهلها بقوله

ولما تداعى القوم واشتبك القنا

ودارت كما تهوى على قطبها الحرب

ومنذ ذلك الوقت بدأت الأنظار تتطلع إلى البارودى الشاعر بإعجاب واعتزاز حيث ترنم بأنغام من الشعر لم يسمعها أهل زمانه. وربما يتساءل البعض عن الباعث الذى دفع البارودى إلى حب الشعر ؟ الحقيقة ذكرها البارودى فى أحد أبيات شعره التى أكدت موهبته منذ صباه، فذكر أنه أحب الشعر بالوراثة عن خاله حيث قال:

أنا فى الشعر عريــق — لم أرثه عن كلاله

كان إبراهيــم خــالى — فيه مشهور المقالة

وربما يكون الباعث له أيضا تشجيعا من استاذ أو قصيدة حفظها واستطاب إنشادها أو مناسبة موفقه سمع فيها من شجعه وأثنى على ذوقه ، علما بأن الولع بالشعر لم يكن غريبا عن طالب المدرسة الحربية فى ذلك الزمن، فيذكر الأستاذ عباس محمود العقاد أن الفروسية كانت قرينة الشعر فقد كان اسم عنتره وأبى فراس من أشهر الأسماء بين الفرسان الشعراء، يضاف إلى ذلك ان الرومانسية لدى الشاعر العربى ايا كان هى مطبوعة فيه لا موروثه وأنها مستقرة فى جبينه وأنه جبل عليها من نشأته. (١)

وإلى جانب ذلك فقد شارك البارودى فى حروب البلقان عام ١٨٧٨ عندما أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وأرسل الخديوى اسماعيل جيشا لمعاونة السلطان، وسافر البارودى مع الجيش، واشترك فى الحرب، وكوفئ على مواقفه خلالها بانعام الخليفة عليه برتبه "أمير اللواء" و"بنيشان الشرف" و "الوسام المجيدى من الدرجة الثالثة" ومع ذلك فان ميادين القتال لم تصرفه عن قول الشعر بل بعث منها إلى مصر عيون

---

(١) للتفاصيل أنظر: عباس العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى.

شعره مضيفا إليها حنينه إلى الوطن، فأخذت قصائده تتناقل فى الأوساط الأدبية، وتثير إعجاب مستمعيها حيث عرفوا فيها الأصالة والتجديد وبعد إنتهاء حروب البلقان عاد البارودى إلى مصر وكان قد أدرك الأربعين من عمره، وبلغ من الرتب العسكرية ارقاها فعين مديرا للشرقية، فمحافظا للقاهرة. وبعد عزل الخديوى اسماعيل وتولية ابنه توفيق حكم مصر وما صاحبه من ازدياد التدخل الأجنبى فى شئون البلاد انضم البارودى إلى الحركة الوطنية برئاسة عرابى بعد ان أحس أن عليه واجبا تجاه وطنه فى مقاومة التدخل الأجنبى.

وبعد ان ثار العسكريون ضد عثمان رفقى وزير الحربية فى أول فبراير ١٨٨١ وتم عزله، أسند الخديو توفيق هذه الوزارة إلى البارودى مع ديوان الأوقاف، ورغم ذلك فإن إذعان الخديوى للتدخل الأجنبى، جعل البارودى يقف بجانب العرابيين حفاظا على أمن البلاد واستقرارها. ونتيجة لأحداث مظاهرة عابدين وما أعقبها من تطورات أدت إلى عزل رياض باشا من رئاسة الوزارة وتولية شريف ثم استقالة شريف نتيجة لخلافه مع العرابيين، قام البارودى بتأليف الوزارة فى الرابع من فبراير ١٨٨٢ ولكن التدخل الأجنبى والمذكرة المشتركة التى قدمتها انجلترا وفرنسا إلى الخديوى أدت إلى قيام البارودى بتقديم استقالته فى ٢٧ مايو ١٨٨٢ احتجاجا على التدخل السافر لبريطانيا وفرنسا فى شئون مصر وانتهى الأمر بتدخل انجلترا عسكريا والقضاء على الثورة العرابية ونفى البارودى مع بعض قادة الثورة إلى سيلان حيث أقام بها سبعة عشر عاما وبضعة شهور تعلم فى أثنائها اللغة الانجليزية وبرع فيها قراءة وكتابة وترجم منها

عدة مواضيع إلى العربية، ومن هناك كتب أروع أشعاره التى بث فيها الحنين إلى الوطن والشكوى من الغربة وانخراطه فى الأسى والألم مستسلما لقضاء الله وقدره، وإلى جانب ذلك فقد قام بتدريس اللغة العربية وعلوم الدين لأهالى جزيرة سيلان.

وطالت فترة النفى، وتقدمت السن بالبارودى وتخطف الموت أثناء ذلك ابنته وزوجته، وبدأ يضعف بصره وتضمحل صحته، فالتمس من الخديوى عباس الثانى عودته إلى وطنه، وقد وافق الخديوى على طلبه وأصدر أمرا فى سبتمبر ١٩٠٠ بعودته فعاد يحمل معه ديوان شعره الخالد وقضى فى مصر اربع سنوات ذهب فيها ما بقى من بصره، وفى نهاية ديسمبر ١٩٠٤ انتقل إلى رحاب ربه وهو فى الرابعة والستين من عمره تاركا تراثه الشعرى والنضالى للأجيال من بعده.